فهد دوحان .. قصيدة : حنظلة

أسقط الموقف على متطلبات المرحلة الراهنة

- الشاعر يريد الوصول للمعادل الموضوعي من وراء شخصية ناجي العلي
- تناول المشهد من حيث كونه حالة عامة ابتعد فيها عن التخصيص
- القتل حكم عليها بالصمت والحزن
- الاستفزاز النفسي المتناغم مع موقف الشاعر إزاء الحدث خلق لدينا إمكانية تصوّره

محمد مهاوش الظفيري

فهد دوحان

هذه القصيدة كتبت في سبتمبر / 1987 م ، بعد اغتيال فنان الكاريكاتير الفلسطيني الكبير ناجي العلي في لندن في أغسطس 1987 .

يا حرفي الواقف على باب الشهيد
مدري ... تخاف القبر ،
ولا القبر في عينك تشوفه مرحلة
فيها الثبات / الزلزلة
لأنه الوحيد اللي تواسى عنده السلطان .. والراعي .. وحل المسألة !
ويا قبري الواقف على حدّ الحروف المقبلة :
لأنك القرار ولا معاك أحد تصير النار بثيابه سلام
اخترتك أدرى في جناحيً
تتعب الريح
وتجف الشمس في جلدي
ويبقى .. " حنظله "
يا حنظله :
من قلت لي : ردّت قوافلنا من الشام
انتبهت !!
أدرى عيونك صارت أوسع من صحارى
كانت دموعك نعام !
وصوتك المتعب تراخى
نام ...
يا هذا الزحام الممتلي فينا جهات مقفلة ...
ردّت قوافلنا بنفس أصواتنا
والأسئلة ..
يا حنظله :
تعال نمشى في المداين
في البيوت العالية
بين الشوارع ..
يمكن القى ، واقدر أسرق من مفاتيح التعب كل المفاتيح القديمة
وافتح الأبواب ..
أبكتب في القلوب الخالية :
طعم العذاب من الغياب
أبصرخ بالحياة الباليه :
ما كان " ناجى " صاحب الوجهين – لو مرّه –
ولا رمى السكين في وجه الحمام
كانت سنينه من عتب
والوانه .. خيول .. وظلام ..
أو باختصار
كان اختصار الكل
أو كل الكلام !!
كل الليالي مالحة
مثل الجروح المستريحة في سوالفنا
وبين أقلامنا
وأقدامنا المتناثرة
ما لامس عيوني جسد في هذى الغربة
مثل هذا الرمد
وأقرا الملامح في ثياب تنتظر ..
يمكن أحد ..
يمكن بلد ..
ويمكن .....
بللتني بالمناديل .. الثياب
ولوّحت لي ... مسافرة !!!
أستجمع اليابس من الأخشاب في صوتي
وافتش في حطام الذاكرة
أفتش عن حطام الذاكرة !
كانت صراخ أغراب ..
كانت نعيق غراب :
منفيٌ بلا منفى يليق بصرخة الفنان ،،
،، موظف في جريدة باردة ..
ترمي براتبها وكتاب الشكر واستغنائها الباهت عن الألوان
والمنفي بداخل أربعة جدران
أربع منصّات يتعلق في زواياها جسد إنسان ،،
منفى جديد أكثر أمان
طلقة تمادت في الحلول ورتبّت فوضى الأماكن
والبلاد اللي بكى فيها
و " عين الحلوة " الأبعد
وطفل حنظله :
العلقمً الأحلى بتاريخ الرحيل المُر
والأكثر وضوح من إصبعين .. ومن علامة نصر
تركض للزناد !!
وتنهي الفوضى بطلقة فاتنة !
ملعون هذا الغرب يا ناجى
تهجاك وقرا كل الخطوط بكفك
ولا كذبك ،
ولا عرف معناك ،
ولا نساك !
أفتش في حطام الذاكرة
أفتش عن دخان ...
أفتش عن .....
.....
لا جيت ضيف لبلدتى يا حنظله تعبر المكان ،،
وكان ياما صاحبك يعبر حدود الرمل وتفيض الخزامى
قلت لك :
لا تشرب الفنجان
واسأل عن حدود الرمل
(واللي كان) بالعطر يتنامى
اترك الركبان
فتّش في بطون الإبل
في كل الجلود اللي تبدل لونها .. في هذى الوديان
بغراب يدارى لوحتك
في عنكبوت ينسج الجدران
في كل الثبات وكل هذى الزلزلة
تظل وحدك حنظله ،..
غريب في (اليوتوبيا) مدينتي
هذى المدينة الفاضلة
أميرة القرى
مدينة الزجاج القاحلة
وأعشاش الطيور الراحلة
والبحر أبو الأسرار
صار كهل
وكان عاجز يحتمل بحار !
يا مصابيح المدينة
هذي الظلما الحزينة صاخبة
لا نار لا سمار ...
يكفي هذى العتمة
مصابيح المدينة شاحبة
أدّور الأشجار
كانت هاربة
أنادى :
يا الديار اللي بقيتي رمل
ما صرت ديار
أنادى :
يا الديار اللي رجعتي رمل ، ما رد النهار
رمل وقبايل ينكسر في دربها مليون عار
رمل وخطى مرّت وخلّت من وراها أسرار
رمل وبلاد تختصر فينا النهار
رمل ونهار يختصر فينا البلاد ، بغرفة ظلما
ستاير .. وأنتظار ..
رمل ولا لك صاحب بالغار
رملً وظلّت وحدها ألأسوار
إرحلً وكون الاختصار
كون اختصار الكل
أو كل الكلام !!

الشيء الملفت في تجربة الشاعر فهد دوحان خروجه عن الأنماط التصويرية الجاهزة ، أي أنه يتحدث عن مشاعره ومواقفه الذاتية من خلف ستارات لغوية تمنحه مرونة الحركة في سياق لا يعرف التناول المباشر للمشهد الشعري لديه ، لهذا فهو يجيد استخدام لغته الشعرية بمهارة فذة تمكنه من تطويع صوره الشعرية بشكل ملفت للانتباه

نحاول في هذه الأسطر القلائل الحديث عن هذا الجانب من خلال الدخول لنص " حنظلة " الذي عرّفه الشاعر بقوله قبل شروع القارئ في قراءته : " هذه القصيدة كتبت في سبتمبر / 1987 م ، بعد اغتيال فنان الكاريكاتير الفلسطيني الكبير ناجي العلي في لندن في أغسطس 1987 . " ، حيث كان هذا باختصار نافذة الدخول ، ولم يكن هذا النص تعبيرًا عن العاطفة بطريقة ذاتية مباشرة ، بل هو محاولة إيجاد مجموعة من الأشياء التي تنتظم في صيغة لغوية توصل إليها الشاعر للتعبير بها عن مواقفه الذاتية ونظرته القومية التي غلفتها شخصية ناجي العلي ، أي أنه لم يقم في هذا النص على استنهاض العاطفة ودغدغة المشاعر بالحنين لذكريات القتيل ، ولم تكن كذلك من مهامه عرض إسقصائي لمَا كان يجري أو جرى ، بل كانت هذه القصيدة ثورة لغوية في عالم التعبير الشعري ، ولم تكن نصًا رثائيًا يندب فيه الشاعر حظه ويتباكى فيه بحرقة على القتيل ، بقدر ما أحدثت لديه هذه المسألة من استنهاض فكري وعاطفي وتحرك إنساني دفعه للحديث عن هذا الموقف بكل وضوح ، حيث استلهم الحدث الإنساني من خلال شخصية القتيل ، وأسقط الموقف على متطلبات المرحلة الراهنة من خلال الموقف من الوطن والوطنية وعلاقة الفرد بالأمة ، إذ عبر هذا النص عن المعادل الموضوعي من خلال تعامله مع ناجي العلي لرمز دلالي في النص ، والمعادل الموضوعي هو صيغة تعبيرية أو مصطلح نقدي مستحدث ، جاءنا من الخارج ، وليس للثقافة العربية عهد به ، وهو من الأمور التي كثر النقاش والجدال حوله ، وهو كما يقول عنه بعض النقاد ليس موجودً في تراثنا العربي ، وليس له مفهوم يمكن أن يقربنا له في ذلك التراث ، كما هو الحال مع الإنزياح اللغوي المتداخل مع المجاز والاستعارة في البلاغة العربية

لقد كانت هذه القصيدة تبدأ منذ ما قبل النص ، أي أنها بدأت من العنوان الذي عكس لنا المأساة والموت ، والموقف المتصدع من الحياة ، من خلال المدلول اللفظي لكلمة " حنظة " التي حملت عنوان النص ، هذا النص الذي وُلدت شخصية " حنظلة " فيه في مخيّم " عين الحلوة " كدلالة على الألم والعذاب ، وهي قناع رمزي لشخصية الرسام الكاريكاتيري ناجي العلي ، وكان يظهر في لوحاته الفنية كتوقيع في صورة شاب شابك يديه من الخلف ، متجهًا للصورة ، ومانحًا القراء ظهره ، وهذا الموقف فيه من الايحاءات الدلالية الشيء الكثير

في هذا النص تعبير صارم عن الإحساس بمرارة الإلغاء والقتل .

من قلت لي : ردّت قوافلنا من الشام
انتبهت !!
أدرى عيونك صارت أوسع من صحارى
كانت دموعك نعام !
وصوتك المتعب تراخى
نام ...

هذا القتل حكم عليها بالصمت والحزن ، فهو يرى كل شيء ويعرف كل شيء ، لأن عيونه وعقله وفكره أشد اتساعًا من الصحاري ، لكنه كان يدفن جراحه في وجدانه ليتفاعل الألم فيه ، غير أنه تراخي ورقد إلى الأبد

لقد خرج الشاعر عن عباءة القتيل ليتحدث عن الأمة التي ترمي مبدعيها خارج الأسوار ، في استحضار صارخ ، ومشبع بالاستفزاز العاطفي والنفسي لمشهد الهجرة والغار وقصة العنكبوت ، دون تسليط الضوء التاريخي المباشر على ذلك الحدث ، بقدر ما جاءت تلك المواقف لتكون محفزًا على الرفض والتوثب لقول الحق والتمسك فيه ، ومن ثم الموت من أجله

حيث نلمح دلالات الهجرة من خلال هذه المقاطع

ما كان " ناجى " صاحب الوجهين – لو مرّه –
ولا رمى السكين في وجه الحمام
كانت سنينه من عتب
والوانه .. خيول .. وظلام ..
أو باختصار
كان اختصار الكل
أو كل الكلام !!

ثم يقول في مكان آخر من هذا النص

اترك الركبان
فتّش في بطون الإبل
في كل الجلود اللي تبدل لونها .. في هذى الوديان
بغراب يدارى لوحتك
في عنكبوت ينسج الجدران

ويواصل هذا الحضور لدلالات الهجرة

يا الديار اللي رجعتي رمل ، ما رد النهار
رمل وقبايل ينكسر في دربها مليون عار
رمل وخطى مرّت وخلّت من وراها أسرار
رمل وبلاد تختصر فينا النهار
رمل ونهار يختصر فينا البلاد ، بغرفة ظلما
ستاير .. وأنتظار ..
رمل ولا لك صاحب بالغار
رملً وظلّت وحدها ألأسوار
إرحلً وكون الاختصار
كون اختصار الكل
أو كل الكلام !!

فهذه المقاطع رغم تباعدها في نسيج النص الشعري ، غير أنها ترمز للهجرة النبوية الشريفة ، التي نثرها الشاعر في ثنايا نصه الشعري دون رابط مباشر توافقًا مع مفهوم المعادل الموضوعي الذي يعتمد على التقاط المسألة من خلال التدقيق وطول التفكير .

إن هذا الاستفزاز النفسي المتناغم مع موقف الشاعر مع الحدث ، خلق لدينا إمكانية تصوّر خروج ناجي العلي من الوطن للخارج ، بخروج النبي محمد – عليه السلام – مع فارق التشبيه الكبير ، الذي خرج من مكة الكافرة قبل إسلامها إلى الحياة المتمثلة بيثرب التي شكلت له الخلاص والمنعطف التاريخي الكبير للنهوض بالأمة ، غير أن " يثرب " ناجي العلي كانت تنتظره بالموت والصمت المرير والطويل ، والإلغاء الثقافي والإنساني . ولو حاولنا التوقف عند هذه التداعيات لرأينا أن ناجي العلي لم يقم بهجرة ، بل حدث له تهجير قسري للخلاص منه ، وكأن الشاعر يريد الوصول للمعادل الموضوعي من وراء شخصية ناجي العلي ، ولم يكن ناجي العلي هنا قناعًا للشاعر بقدر ما كان معادلاً موضوعيًا للأمة والوطن المحكوم عليهما بالنفي والإلغاء والطرد ، فالشاعر هنا لم يتعامل مع الحدث كحالة خاصة تقربه من القناع ، بل تناوله المشهد من حيث كونه حالة عامة ابتعد فيها عن التخصيص . لقد تحول ناجي العلي من كونه رسامًا في جريدة ، أو كما قال " موظف في جريدة باردة " للدخول في أبدية الحياة الكبرى ، باعتبار أن الموت حياة أخرى ، لا تؤمن بجدلية الزمن ، ولا تحدها سياجات الأمكنة ، أو كما عبر عن هذه الزاوية الشاعر بقوله

أربع منصّات يتعلق في زواياها جسد إنسان ،،
منفى جديد أكثر أمان
طلقة تمادت في الحلول ورتبّت فوضى الأماكن

لقد امتزج ناجي العلي بالزمن والمكان ، وصار جزءًا من الطبيعة ، أو كما قال متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك

لقد لامني عند القبور على البكا
رفيقي لتذرافشِ الدمَوعشِ السوافكِ
فقال : أتبكي كلِ قبرٍ رأيتهُ
لقبرِ ثوى بينَ اللوىً فالدكادك
فقلتُ له : إن الشجا يبعثُ الشَجا
فدعني ، فهذا كلّهُ قبرُ مالكِ

امتزجت روح ناجي العلي بالزمن والمكان ، وتمددت لتصل إلى الإنسان الذي قتله ، وهو يتباهي بالنص والشموخ والدفاع عن الإنسان

العلقم الأحلى بتاريخ الرحيل المُر
والأكثر وضوح من إصبعين .. ومن علامة نصر

ليتحول في نظر الجميع ، بما فيهم قاتليه الذين اندسوا بين رؤوس المشيعين له والمصلين عليه ، حيث حولته تلك الرصاصات القاتلة من ضحية إلى شهيد ، ومن " موظف في جريدة باردة " كما يقول دوحان إلى رمز للوطن السليب ، والأمة المنكوبة بفقد مثقفيها

محمد مهاوش الظفيري

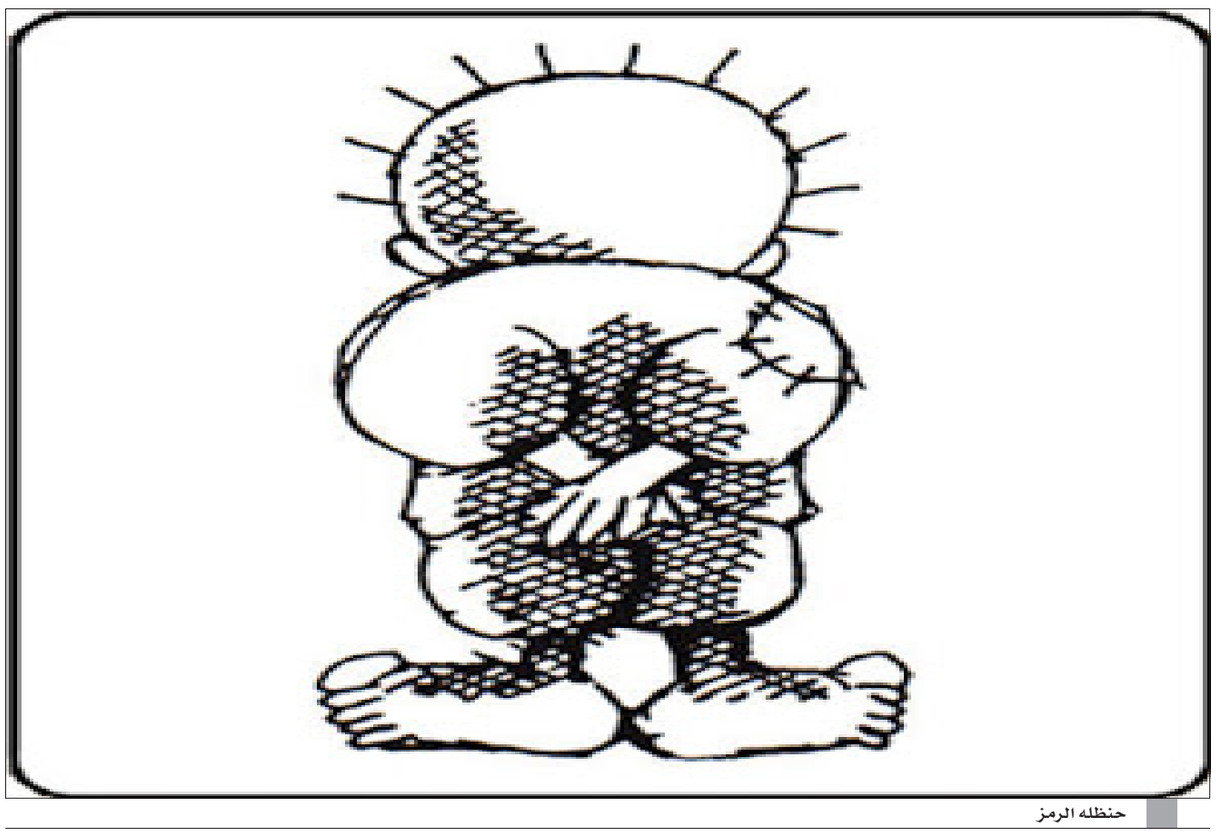

حنظله الرمز